مشهد من مشاهد السيرة

●

في مثل هذا اليوم * قبل الف وثلاثمائة وست وسبعين سنة ولد محمد النبي العربي. وبولادة النبي الامين خرجت البلاد العربية من رحم الماضي الى شمس التاريخ بعـــد ان كانت قروناً واجيالا اسماً جغرافياً لم يشتهر الا بالرمال والافاعي المجنحة - تلك الافاعي التي ادخلت الرعب الى قلب آسر حدون (٦٧٠ ق م) ، وردّت جحافله الاشورية عن الجزيرة خائبـــة . وقد وصلنا وصف لجزيرة العرب من فم اشعياء النبي اذ قال : انها « ارض شدة وضيقة ، منها اللبؤة والاسد الافعى والثعبان الطيار السام . يحمل (اهلها) على اكتاف الحمير ثروتهم وعلى اسنمة الجمال كنوزهم الى شعب لاينفع » (اصحاح ٣٠ : ٦) . وذكر هيرودوتس ابو التاريخ (كتاب ٣ فصل ١٠٩) ان الافاعي موجودة في جميع اطراف العالم ، امـا المجنحة منها فلا ترى الا في بلاد العرب حيث تجمعت كلها .

غير ان هذه الحالة ما لبثت ان تغيرت واحتلت البلاد العربية مركزها في الشمس بوحي محمد واعمـــاله . ففي فترة من الزمن لاتتجاوز العقد من السنين ، اوجد النبي من قبائل البلاد المتحاربة

* القيت في حفلة المولد النبوي بجامعه بيروت الاميركية .

امة متحدة ، وزودها برسالة عالمية لبى نداءها شعوب الارض من بحر الظلمات غرباً حتى الصين شرقاً ، ومن بحر الخزر شمالا الى اقاصي السودان جنوباً ، ووضع الحجر الاساسي لامبراطورية سرعان ما ضمت في بنيانها خيرة اقطار العالم آنئذ ، وخلف لها كتاباً يدين به اليوم سُبع بني آدم ، ودفع بهم في جادة التاريخ فساهموا في خلق حضارة لايزال العالم باجمعه ينعم ببركاتها .

فمولد النبي اذاً مولد العروبة ، ويوم معدود في تاريخ الجملة البشرية . ولا نستطيع ان نحتفل بالواحد دون ان نحي ذكر الآخر. وليس مرادي اليوم ان اتغنى بالماضي واشيد بذكر ما فات ، اذ ليس الماضي للعبادة والتبجيل بل للعبرة والالهام. فاسمحوا لي اذاً ان اتقدم اليكم بمشهدين : مشهد من مشاهد السيرة النبوية وآخر من مشاهد السيرة العربية :

المشهد الاول : بنيان الكعبة .

الزمان : السنة الثامنة والعشرين قبل هجرة النبي ، وكان عمره يومئذ خمساً وثلاثين سنة .

المكان : الكعبة ، كعبة قريش في بطن مكة .

الممثلون : القبائل من قريش .

فاسمعوا ما يقوله ابن اسحق صاحب السيرة في وصف هذا المشهد :

« ثم ان قريشاً تجزأت الكعبة ، فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة ، وكان ما بين الركن الاسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا اليهم ، وكان ظهر الكعبة لبني

جمح وسهم ابني عمرو ... ابن لؤي، وكان شق الحجر لبني عبدالدار ابن قصي ولبني اسد بن عبد العزى بن قصي ولبني عدي بن كعب بن لؤي ، وهو الحطيم .

... ثم ان القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن فاختصموا فيه كل قبيلة تريد ان ترفعه الى موضعه دون الاخرى ، حتى تحاوروا وتخالفوا واعدوا للقتال . ثم انهم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا فقال ابو أمية ابن المغيرة ... ابن مخزوم (وكان أسن قريش كلها) « يا معشر قريش : اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه اول من يدخل هذا المسجد يقضي بينكم فيه » ففعلوا ، فكان أول داخل عليهم رسول الله (ص) فلما رأوه قالوا هذا الامين، رضينا ، هذا محمد . فلما انتهى اليهم واخبروه الخبر قال (ص) « هلم الي ثوباً » فأتي به فنشره وأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً . ففعلوا حتى اذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه » .

واني أرى في هذا المشهد صورة مصغرة لحالة العرب قبل أن وّحد الامين صفوفهم ، وسار بهم في جـــادة التعاون واقتادهم الى معترك التاريخ . توفرت لديهم الاسباب والغايات المادية والروحية فتجزأوا الاولى وقصروا عن بلوغ الاخرى ، لا لسبب سوى أنهم جمعوا على حدة واختصموا على شرف الزعامة والظهور .

فاخر العرب ، كل على حدة ، بكعبتهم . وابتغوا ، كل عـــلى حدة ، بناءها . وجمعوا الحجارة ، كل على حدة ، لبنيانها . وباشروا ،

كل على حدة ، تعميرها . الى أن بلغوا ، كل على حدة ، موضع الركن – فاختصموا وتحاوروا ، وتخالفوا ، وأعدوا القتال ، من منهم يستقل بالشرف من رفع الركن الى موضعه ، من منهم يفوز بالوجاهة ويسير في الطليعة .

آفة العرب العمل على حدة . هذا ما ابقاهم قروناً واجيالاً في رحم الماضي ، هذا ما جعل بلادهم ارض شدة وضيقة ومسرحاً للثعبان الطيار السام ، هذا ما جمع في جزيرتهم كل الافاعي المجنحة . وهل هنالك أشد سماً وفتكاً من تلك الافاعي الروحية التي وصفها جعفر بن ابي طالب للنجاشي – عبادة الاصنام واكل الميتة واتيان الفواحش وقطع الارحام واساءة الجوار واكل القوي منهم الضعيف ؟

رفع النبي الامين امام العرب فكرة أعظم منهم ، ودربهم على العمل والتعاون في سبيلها ، وحبب اليهم ان يضيعوا انفسهم فيها فوجدوها . دعاهم الى التوحيد وصدق الحديث وحسن الجوار ، وصهرهم في بوتقة الاخلاص فاستحالت ضعفاتهم الى قوة ، وتفرقهم الى تضامن واتحاد ، وقبائلهم الى امة ، ولهجاتهم الى لغة موحّدة موحِدّة . وكما نشر للقبائل من قريش ثوباً وامرهم بالاخذ باطرافه حتى يصل الركن الى موضعه – نشر للعرب ثوب التعاون والاخاء ، وناداهم للاخذ باطرافه ، ورفعه حتى يصل الركن الى موضعه – ركن العروبة الى علا المجد .

*

قال النبي : « تذاكروا الحديث فان الحديث مدعاة للحديث » .

وان جاز لي القياس قلت : « تذاكروا التاريخ فان التاريخ مدعاة للتاريخ » . وفي عرض مشهد من مشاهد السيرة النبوية مدعاة لعرض مشهد من مشاهد السيرة العربية . فاسمحوا لي ان اتقدم اليكم بالمشهد الثاني وهو مأخوذ من مشاهد السيرة العربية الحديثة .

المشهد الثاني - بنيان الوحدة العربية .

الزمان - عام الف وثلاثمائة وخمسة وستين من الهجرة النبوية والسنة الاولى من عصر القنبلة الذرية .

المكان - الشرق الادنى .

الممثلون - الاقطار العربية .

فاسمعوا لما يجول في خاطر كل عربي ولم تنبس به شفة ولم يفض به قلم .

وتجزأت الاقطار العربية العروبة وتقاسمتها . فكان القلب للعراق والصدر لمصر والساعد الايمن للحجاز والرأس لسورية والوجه للبنان وقبائل من السواحل الفينيقية وحوض البحر الابيض المتوسط انضموا اليه .

ثم ان الاقطار العربية جمعت العدة لبناء الوحدة العربية ، كل قطر يجمع على حدة ، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن ، فاختصموا فيه ، كل قطر يريد ان يرفعه الى موضعه دون الآخر ، حتى تحاوروا ، وتخالفوا ، واعدوا للقتال من منهم يسير في الطليعة ؟ من منهم يفوز بزعامة العرب ؟

توفرت اليوم للعرب ، كما توفرت بالامس لقريش ، الاسباب

والغايات الماديه والروحية . فتجزأوا اليوم ، كما تجزأوا بالامس ، الاولى ، وقصروا اليوم ، كما قصروا بالامس ، عن بلوغ الاخرى ، لا لسبب سوى انهم جمعوا اليوم ، كما جمعوا بالامس ، على حدة . واختصموا اليوم ، كما اختصموا بالامس ، على شرف الزعامة والظهور .

آفة العرب اليوم آفة العرب بالامس — العمل على حدة ، هذا ما جعلهم اليوم فريسة للاستعمار . هذا ما جعل بلادهم ارض جهل وفقر ومسرحاً لكل بدعة قومية وانشقاق . هذا ما جمع في بلادهم كل الافاعي الفكرية . وهل هنالك اشدّ سماً وفتكاً من عبادة أصنام الماضي سوى عبادة اصنام الحاضر من شخصيات جوفاء وعائلات عريقة في الظلم والعدوان وبيوتات مشغولة عن مصلحة الشعب بالمحافظة على عروشها ، وبتثبيت تيجانها المتقلقلة على رؤوسها ؟ وهل هنالك اشد سماً وفتكاً من تلك الافاعي الاخلاقية التي تجمعت في الاقطار العربية من تبلبل الالسنة وانتشار الفوضى ، وتضارب الاراء الهدامة ، وفساد الاخلاق الفردية والاجتماعية ، والتكالب على الوظيفة وحسبانها غاية في نفسها لا امانة في ذمة الموظف ، وانتشار الرشوة واختلاس اموال الشعب ، وفساد الحالة الاقتصادية ، وتسلط الامية على سواد الامة ، وعدم المبالاة بهذه المشاكل والوقوف منها موقف المتفرج دون الاقدام على معالجتها والتوكل على الاجنبي في حلها ، وتغلغل التعصب الديني في النفوس واستخدام الطائفية اداة للسياسة والحكم ، وانعدام الوعي القومي الصحيح وقيام الحركة العربية على الاشخاص

والعائلات دون الشعب ؟

فكما حالت في القديم عصبيات قريش ومشاحناتها الفردية في سبيل الزعامة بينها وبين بناء الكعبة ووضع الركن في موضعه ، تحول اليوم آفات المجتمع العربي وتنازع اقطاره في سبيل الزعامة بين العرب وبين بناء صرح وحدتهم .

ان العروبة يا قوم فكرة أعظم من أي شخص او عائلة ، وهي اكبر من كل قطر عربي على حدة . ولن يرتفع بناؤها ما لم تعمل جميع الاقطار العربية معاً في سبيلها وما لم تضع أنفسها فيها. ولا نفع في فصل وجهها عن رأسها أو انتزاع قلبها من صدرها .

اذكروا يا قوم ان هذه السنة هي الاولى من عصر القنبلة الذرية. فالتطاحن على حدود جغرافية أو حقوق وراثية اصبح اليوم لغواً. ولا نستطيع اليوم ان نخلط بين القضية والزعيم ، وان نلبس بين الدعوة والداعي . ومن الجهل أيضاً ان نحاول ان نرفع بناء الوحدة العربية على اسس مادية مهما تكن قوية . ان اسس هذه الوحدة الصالحة روحية منذ البدء ، ويجب ان تبقى روحية الى الابد . فقوام الوحدة العربية قوة الاخلاق والتعاون والتنظيم والتضحية وحرية الفكر والقول والعمل ، ولن تتم لنا وحدة أو تدوم اذا رفع بناؤها على غير هذه . ففي عالم الروح والفكر تجد العروبة وسيلتها المثلى . ولنا الآن هنالك كما كان لنا في الماضي افاق بعيدة نجوبها وافلاك واسعة نحلق فيها كما حلق فيها اجدادنا من قبل ، واضاؤوا بنورهم طرق الانسان وبددوا ظلمات الارض وكانوا هدى للعالمين . وحاجتنا اليوم حاجة القبائل من قريش يوم جاءهم

الرسول الامين فوحّد صفوفهم وادخلهم راضين في خدمة فكرةٍ أعظم منهم افراداً واعظم منهم جماعـات . فمن لي بمحمد أو روح محمد ، تنشر للعرب ثانية ثوب التعاون والاخاء ، وتناديهم للاخذ باطرافه ورفعه حتى يصل الركن الى موضعه - ركن العروبة الى علا المجد .